

## أزمة كورونا والعلوم الاجتماعية : جدلية الثنائيات - قراءة في العولمي والتقليدي -

عبد العزيز خواجه (1)

### مقدمة

في لحظة من الزمن تحوّلت "Wuhan ووهان" من مجرد منعوتة لقرية مترامية في أحد أطراف شرق الصين لا يعرفها غير بعض الباحثين وهواة أكل الجردان والخفافيش، إلى علامة أو "ماركة" عالمية مُعولمة، وأضحت الاسم الأكثر تداولاً عبر العالم إن على مستوى التبادل العلمي أو على مستوى التواصل الاجتماعي أو الإعلامي. ذلك؛ أنّ هذه البقعة كانت مصدراً لمرض أو فيروس أربع الكوكب بأكمله وحيّر المجتمع البحثي في المختبرات، وبعولمة الفيروس (كورونا - كوفيد 19) تعولت البؤرة التي عرف فيها الفيروس ميلاده وحصوله على شهادة السكن وسط الجسم الإنساني متخذاً منه بيتاً ووسيلة النقل الفعالة للوصول إلى أبعد نقطة لم يزرها من قبل، ثم ليتدرج في المراتب إلى أن يحوز أعلى الدرجات في الترتيب "الإبيديمولوجي" بمرتبة "الجائحة Pandémie/Pandemic" إثر تصنيفه كذلك من قبل منظمة الصحة العالمية في مارس 2020، بعد أن أرخى سدوله لأكثر من ثلاثة أشهر من التجوال والاستجمام في صدور البشر حتى "تمطى وناء بكلكل".

هذه السرعة والتسارع في آلية العولمة الكوكبية والانتشار المذهل إلى كامل القارات، يرفع للواجهة سؤالاً في غاية الحساسية، ما التناسب الذي حدث بين شيوع الفيروس باسمه ومصدره بسرعة الضوء من جهة، وطرق التصرف معه من جهة أخرى، وبطرح

(1) أستاذ التعليم العالي في علم الاجتماع، جامعة غرداية، 47000، غرداية، الجزائر.

آخر هل تعامل العالم معه بالطريقة ذاتها التي تعاملت معه القرية التي أنتجته أو أنتج فيها؟... يحيلنا هذا الاستفهام إلى إشكالية كبرى ما برحت تُطرح باستمرار، وهي العلاقة الواقعة بين العالمي والمحلي (أو التقليدي)؛ لكن هذه المرة في ارتباطها المباشر بسبل التعامل مع الوبائية حين تصبح حالة عالمية. فإذا استطاعت "ووهان" محاصرة الفيروس في ظرف 75 يوماً والاحتفال بانتصارها عليه، فما زال العالم يتخبط في أي الطرق سيختار للتخلص منه... فأين الخلل؟؟... ألعلة أنّ المحلي يختلف عن العالمي وغير قابل للتوسع، أم أنّ العالمي عاجز عن توفير آليات المحلي والتحكّم فيها؟؟...

### الجدل وتأخر العلم الاجتماعي

الجدل - غير الحركي أحياناً - بين المحلي، بمختلف مسمياته (الأهلي، المدني، التقليدي...)، والعالمي، هو الآخر بمنعوتاته المتباينة (الكوكبي، المعلوم...)، ووضعهما في كثير من الحالات طرفي نقيض، خلق نمطاً متداولاً، يضم لكل صف مجموعة من الخانات الخاصة بها تقابلها في الجهة الأخرى الخانات المعادية، فإلى العالمية - مثلاً - تُلصق صفة التكنولوجيا في مقابل اليدوي للمحلي، العقلاني للعالمي والوجداني العاطفي للمحلي... وهكذا في جميع المخصّصات أو الصفات لهذا أو لذاك. عمقت الطروحات السوسيولوجية كثيراً هذا التباعد بين القطبين إلى حدّ الاعتقاد في بديهيتهما، ولم يعد من المستغرب الحديث عن سوسيولوجيا المحلي باعتبارها الخطّ المقاوم "لغول" سوسيولوجية العولمة السائرة نحو التعميم "الأكيد".

هذه الجدلية وغيرها أصبحت اليوم موضع اختبار مع حدث "كورونا كوفيد 19"، فقد أضحى العالم حقلاً ميدانياً وفعالياً للتجارب النفسية - الاجتماعية، فما كان البشر يرفضونه بالأمس أصبح مفروضاً عليهم قسراً في هذه اللحظة، وما على السوسيولوجية إلا أن تراقب وتسجّل الأفعال وردود الأفعال وما سيسفر عنه المشهد بعد ذلك لتستخلص النتائج، فالرابط الاجتماعي مثلاً، والتعلّم الإلكتروني، والمسافة الاجتماعية، والعودة للأسرة، والتجارة الإلكترونية... وغيرها من الموضوعات هي اليوم في المحكّ والمختبر الكوني، والعالم كلّه يبدو حقل تجربة مفتوح للعيان خلال هذه الأشهر العصبية من تاريخ الإنسانية.

الأوبئة أو الجائحات التي هشتت وبشتت البشرية في تاريخها جمّة منذ العصور الأولى إلى الوجود الحديث، من ذلك مختلف أنواع الإنفلونزا (الروسية 1889-1890، الإسبانية 1918-1919 وهي الأكثر فتكا، الآسيوية 1957، هونغ كونغ 1968، الخنازير 1976، الطيور 1998...) التي ضربت الأصقاع، والطواعين وأبرزها الطاعون الأسود خلال العصور الوسطى (1348)، وقبلها طواعين العصر الأموي والمملوكي في التاريخ الإسلامي، منها ما مسّ الشام ومنها ما مسّ فلسطين ومصر وغيرها (الهاشمي، 2020)، ومرض الإيدز (بداية الثمانينيات) وإلى ذلك من الأمراض الفتاكة؛ لكنّ الذاكرة الجمعية وحدّها من كان يحفظ دروسها وعبرها من خلال التجليّات والتمثّلات التي تصبغها عليها سواء المعقلنة منها أو الحديثة أو الأسطورية، ثمّ جاءت علوم الأوبئة لتهتمّ بها بعد ذلك في العصر الحديث (الهاشمي، 2020)<sup>1</sup> من بيولوجيا وطبّ وغيرهما من زاوية المكوّن العلمي للمرض والأعراض والتراكيب الدوائية وطرق المعالجة الاستشفائية وغير ذلك، ولم تلتحق المُسمّاة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية بحلّة الاهتمام بها، بعيداً عن السؤال الطيّ أو الحديثي والمأساوي، إلى نهاية السبعينات من القرن الماضي مع أوّل كتاب في الموضوع لويليام ماكنيل William Hardy McNeill (1917-2016) عن "تاريخ الأوبئة" سنة 1978 (فانيورون، 2020، ص. 06).

شكّل هذا الانخراط بالرغم من بُطئه منعرجاً حاسماً؛ إذ وقرّ تراكمًا معرفيًا مهمًا على مختلف الأصعدة، منها ما ارتبط بالفئات الاجتماعية وردود الفعل المجتمعية للمرضى، ومنها ما اتصل بالحركة الديموغرافية أمام المرض، ولكن أيضاً مدى استغلال الواقعة المرضية سياسياً في تشبيك العلاقات بين الدول والحكومات والصراع بينها، وفي ممارسة حركة المدّ والجزر بين السلطة والشعب... ولعلّ الإنفلونزا الإسبانية كانت الأكثر حظاً بالدراسة في الموضوع.

إنّما بقي مستوى الاهتمام الاجتماعي بها جدّ محدود لحدّاءة هذا الفعل المعرفي وعدم توقّر البيانات الكافية للحالات المدروسة، وما تزال العديد من البقع في هذا الحقل المترامي تحتاج لإيضاح وتفكيك أكثر، على رأسها العلاقات الاجتماعية بين الأفراد خلال اللحظات الوبائية، ومدى التوافق بين تعامل المحلّي والعالميّ مع الجائحة. ولعلّ تجربة فيروس كورونا اليوم فرصة لاختبار هذه الإحداثيات الاجتماعية.

<sup>1</sup> كتب المسلمون أكثر من 70 مؤلفاً في موضوع الأوبئة بمختلف مناحيها خاصة الجانب الديني والطبي.

## نحو حصار "العولمي" وانحصاره

منذ ظهور الفيروس والحدث عالميُّ مُعولمٌ إن في انتشاره أو الخطاب المُنتج حوله أو طرق التعامل معه؛ لكنّ الظاهرة البارزة في الموضوع أنّ هذا الفعل كلّما حاول أن يأخذ الصبغة العالمية (أو المعولمة) ظهرت ممارسات معادية لما يجعل منه كذلك، لتعزله وتعزل كلّ مكتسب "عولمي" عنه خوفاً منه، وكأنّ الإنسانية يئست - حالياً - من حدث العولمة والانفتاح غير المحدود على الآخر، واشتاقت للعودة إلى حالة الوجود الأوّل والانحصار على الذات في ذوات أنثروبولوجية مغلقة حذراً من الاختلاط غير المشروط، مُصحّحة بذلك من مسار البشرية المتّجه تطوُّرياً نحو "التعولم"...

يظهر الخطاب العولمي عن فيروس "كورونا - كوفيد 19" من الحدث في ذاته، فوصله إلى الجهات الأربع مع العالم وانتقاله المفاجئ والسريع، ولو بنسب متباينة وأرقام مختلفة، تحكّمها الإيديولوجيات السياسية وقدرة البلد على اكتشاف الإصابة.. جعل منه الضيف غير المحبّب لدى الجميع بدون سابق إنذار، ولم تعد في المعمورة قطعة في منأى عن زيارته "المقلقة"، فكان السؤال ملحاً عن الناقل والمسبب للعدوى أو الحامل له من مكان لآخر، لتتوجّه أصابع الاتهام لوسائل النقل (على رأسها وسائل النقل الجويّة والبحرية طبعاً) التي قاربت بين الشعوب وجعلت من العالم "قرية صغيرة"، فأصبح الأجنبي فجأةً أو العائد من البلد الأجنبي محلّ الخطر والتوجّس، وقزرت العديد من الدول إيقاف هذا "المكسب العولمي" وإسقاطه أرضاً، فأغلقت الكثير من المطارات والموانئ ولم تبرح النفاثات ولا البواخر مكانها منذ أشهر، ليعود إنسان الدولة المفتوحة إلى إنسان الأرض المحدودة والمُغلقة، تحديداً وبالتعبير الأنثروبولوجي إنسان العشيرة والقبيلة ذات الفضاء المعلوم مسبقاً في صحرائها أو أدغالها أو جبالها، لا يطؤها الأجنبي إلا بطقوس تطهيرية صارمة، إنّما بوسائل حديثة.

عولمة الحدث ظهرت أيضاً في التخمينات التي أبدعها "المحلّلون الكهنة" عن أسباب ظهور الفيروس وأبعاده الكونية، لتطفو بدايةً نظرية المؤامرة، ومن ورائها النظام العالمي الجديد الذي يسعى لغرس مخالفه وامتصاص دماء البشر بما في ذلك آراء سلافواي جيچيك (نوري ديهنافي، 2020) عن رجوع الاشتراكية من جديد؛ لكن سرعان ما تراجع هؤلاء بعد الانجلاء الواضح للتشقّقات الرهيبة في هذا النظام ذاته، الذي أُصيب هو نفسه بحالة الرعب والهلع، ليتواضع أصحابه بعض الشيء في تحاليلهم، متهمين بداية

الصين كوئها المنتج المتعمد للفيروس قصد تصفية حساباتها مع الغرب وشركاته الاقتصادية، ولم تدم الأطروحة طويلاً لتنقلب على أمريكا، قائدة العالم ومنتجة أفلام الرعب والخيال العلمي الهوليوودية واتهامها بالوقوف وراء إنتاج الداء؛ لكن هذه الأخيرة ظهرت أضعف من غيرها أمام بطش الفيروس لتطفو تصريحات رئيس لا يعي كثيراً ما يحدث من حوله ليسم هذا الكائن بـ "الفيروس الصيني" مُقرّاً من حجمه العالمي إلى الحدود الجبهوية المحصورة.

يتواضع أصحاب التحليل مرة أخرى لأقلّ من ذلك باتهام فرنسا بائعة مختبر "ووهان" للصينيين مطلع هذا القرن بالوقوف وراء المأساة العالمية، وتدرّجياً بدأت تتقلّص التحاليل ليظهر بين ركام التصريحات أبرز مفكّر بيولوجي حائز على شهادة نوبل في الطبّ "لوك مونتانييه Luc Antoine Montagnier مُدّعياً أنّ الفيروس هجين بفيروس الإيدز وهو مصنّع لأسباب علاجية يُحتمل انفلاته لخطأ مخبر<sup>2</sup>.

وهكذا انطلقت التحاليل من البعد العالمي "العولي-الكوكبي" التأمري لتتقلّص تدرّجياً وتجد التفسير الأكثر قناعة ومنطقية عند رجل واحد كان قابعا في مختبره بعيداً عن الجميع وعن صخب ضجيجهم، إنّه الحدث الأنثروبولوجي يتجلّى مرة أخرى حين يتعب أهل القرية من البحث في أسباب الكوارث عند العزّافين والكهنة والمنجمين، ويجدونه في النهاية عند رئيس القبيلة المعتكف في حجرتة أو في إحدى جنبات الغابة الكثيفة هناك بعيداً عن الضوضاء والصخب.

طرق التعامل مع الفيروس أو على الأقل الخطاب المُنتج عن طرق التعامل معه، بدأت باتفاق كوكبي على غياب لقاح أو دواء فعّال للمرض مع ضرورة توفير أجهزة التنفّس، وأنّ أهمّ وقاية له تتمثّل في ارتداء الكمامات الصحيّة، لينفجر النقاش بعد ذلك داخل كلّ قطر عن طرق متباينة للعلاج، فهذه الدولة أعلنت عن "الكلوروكين"<sup>3</sup> مخفّفاً ومعالجاً، وتلك ترفض، وأخرى عن "ريمديسفير"<sup>4</sup> ترياقاً، وتقترح أخرى علاجاً آخر... وهكذا كلّ يغيّ ليلاه، لتبدأ حرب الغنائم على الكمامات بالخدعة الاقتصادية أو القوّة العسكرية، فهذه أمريكا تسطو على حصّة فرنسا، وتلك فرنسا تنقضّ على حصّة تونس، وروسيا على حصّة بلد آخر وهكذا... كلّ يكافح من أجل شعبه

<sup>2</sup> www.alhurra.com/coronavirus/2020/04/18

<sup>3</sup> www.france24.com/ar/20200325

<sup>4</sup> www.scientificamerican.com

أو فصيلته أو قُلْ بلده رغم أنّ الفيروس عالمي، ليزكّرنا المشهد بلحظات إنسان القبيلة والحرب على الغنائم من جمال أو كلاً أحياناً أو منابع للمياه أو غيرها من المصادر الحيوية للعيش سواء عند العربي أو الإفريقي أو الأمازوني أو غيره في البلدان "الأنثروبولوجية" الغابرة في القدم.

وعلى مواقع التكنولوجيا الرقمية الحديثة يقترح علينا رواد الطب الشعبي من بيوتهم و"أكزاناتهم" وصفاتهم العجيبة، وترى الكلّ يسجّل الإعجاب ويؤكد فعلية الوصفة، بذلك يعجز الطبّ "الكوكبي المعلوم" ويعود الجميع إلى الأمّ العجوز في بيتها بالقرية النائبة طلباً للشفاء والدواء، إنّه الرجوع الأنثروبولوجي إلى أول المنطلق؛ حيث بدأ الطبّ وبدأت تجارب الإنسان الأول مع الأعشاب والعلاج التقليدي هرباً بل وربما انتقاماً من علمية "السكانير" والليزر والأجهزة المتقدّمة في المستشفيات الحديثة العاجزة عن إشباع الحاجة.

وأحد أبرز مظاهر العود على بدء في أزمة كورونا الركون إلى الخلية الاجتماعية الأولى في البناء الاجتماعي الهرمي، فبعد أن كان إنسان العصر يشغل في البنى العالمية الكبرى اقتصادياً وسياسياً وحتى اجتماعياً في شركاته ومؤسّساته معتبراً الحياة التقليدية العائلية من متاع نهاية الأسبوع أو الفاضل من الزمن إن وُجد، ليرغم الفيروسُ المستجد الكلّ على العودة إلى الأسرة واللعب مع الأطفال وقضاء جلّ الوقت معهم داخل البيت بعد أن اشتاقوا طويلاً إلى آبائهم وأمهاتهم. وبذلك تطفو مرّة أخرى النقاشات الأنثروبولوجية لهزري لويس مورغان وفريدريك إنجلز<sup>5</sup> عن أصول الأسرة وأسبقيتها في تاريخ البشر، وتنتصر آراء علماء الاجتماع العائلي (إبراهيم العزبي، 2019) في أولوية الحياة الأسرية على غيرها، ولا يجد المخلوق العاقل في آخر المطاف غير حضن الأسرة والعلاقات العاطفية الأولى ملاذاً له، ولتأخذ هذه البنية الأولى ثأرها من تغافل الرجل المعاصر وتجاوزها لها منذ أمد بعيد... إنّه البيت ومعيش الإنسان الغابر مهما ارتقى وتقدّم علمياً وتكنولوجياً.

ومن هنا يبدو من الضروري جدّاً ربما مراجعة أطروحات فيرديناد تونيز في "الجماعة والمجتمع" وإميل دوركايم في "تقسيم العمل الاجتماعي" (خواجه، 2018، صص. 33-41) حين جزما بأنّ التاريخ الاجتماعي يتّجه من الحالة التقليدية الجمعية إلى الحالة

<sup>5</sup> www.matricien.wordpress.com

العقلانية الفردانية، فبؤادر النكوص أو العودة تلوح بقوة ولو أنيّا من الحالة العولمية إلى الحالة الجماعية، كما أنّ المشاهد أو العناصر المذكورة سابقاً تجعلنا أمام براديجم مفاده أنّ المخلوق البشري حين يمرّ بالحالات العصبية يعود في تفكيره وسلوكه واعتقاداته وبناءه الاجتماعية إلى حالته الأنثروبولوجية الأولى ويتخلّى إلى حدّ بعيد عن مكتسباته التاريخية والحضارية المتراكمة وتتقلّص عولمته لصالح ذاته المحليّة، وهذا الوضع طبعاً ينطبق على الإنسان في الحالة العامة دون الحالات الجزئية.

### اجتماعية التقليدي بآليات الحديث

راودني تساؤل أقرب إلى افتراضٍ وأنا أتابع بعض التجارب المحليّة في تعاملها مع أزمة "كورونا - كوفيد 19"، ويتمثّل في مدى الارتباط بين المجتمعات الأكثر اجتماعية أو ممارسة للفعل الاجتماعي بكثافة وقابلية تعرّضها للفيروس أكثر بما أنّ أفراد هذه المجتمعات يتواصلون فيما بينهم عن قرب ويحتكّون ببعضهم بعضاً باستمرار؟ ... لعلّ اجتماعية المجتمع الصيني الشرقي والمجتمع الإيطالي التاريخي المتوسطي المعروفة تثبت هذه الاحتمالية نسبياً، وما حدث خلال شهر رمضان من ارتفاع نسب الإصابة في أغلب الدول العربية نتيجة زيادة كثافة النشاط الاجتماعي أيضاً يدعم هذه الفرضية... وكلّها معطيات تقرن بين اجتماعية المجتمع وانتشار المرض؛ لكن من الواضح في المقابل أنّ كثافة النشاط الاجتماعي من احتكاك وتقارب أو ما سمّيناها باجتماعية المجتمع تختلف هي الأخرى من مجتمع إلى آخر، فهي أنماط أو أشكال متعدّدة، وإلّا فكيف نعلل تقلّص المرض في المجتمع نفسه الذي زادت فيه نتيجة اجتماعيته، ونقصد بذلك المجتمع الصيني؟ ولتفكيك هذه العلاقات نحاول البحث في بعض آليات التعامل مع الفيروس.

رفضت أوروبا من منطلق الفكر الديمقراطي الحرّ والحداثي، التدخّل في الحياة الشخصية للأفراد وترقّب تصرفاتهم وتنقّلاتهم، في الوقت الذي أقامت فيه الصين كاميرات مراقبة في كلّ مكان وأخضعت كلّ مواطنيها إلى رقابة شديدة من خلال هواتفهم النقّالة، والطائرات الصغيرة دون طيّار، واستطاعت ترصد تحركات المرض إلى الحدّ الذي تصل فيه للفرد رسالةً خاصةً به إذا جلس بجوار فرد مصاب، ووضعت نظاماً لتقييم سلوكيات مواطنيها بالنقاط، بلغ حدّ العقاب في حال عدم امتثال البعض للتعليمات كارتداء الكمّات والحفاظ على المسافة الاجتماعية وغيرها من الإجراءات، وكذا الحال في تايوان وكوريا الجنوبية.

هذه التعرّية غير المحدودة لحياة الفرد أو ما سمّاه يوفال نووه هراري "المراقبة من تحت الجلد" (نووّه هراري، 2020، ص. 03) والصرامة في العقاب تذكّرنا بالضمير الجمعي لدى دوركايم وتمائل الأفراد فيما سمّاه بالتضامن الآلي، ولا يتوقّف هذا النمط من العلاقات إلّا في المجتمعات التقليدية والبدائية حسبه، مع أنّ ما قامت به الصين وتايوان وكوريا كان عن طريق استعمال التكنولوجيا المتطوّرة التي تنتهي تجاوزا للمجتمعات الحديثة المعولمة. وهنا تبرز النتيجة الأولى المفاجئة في التقاطع بين المعولم والتقليدي؛ إذ على المجتمعات الحديثة إن أرادت تجاوز حالات الأزمة العودة إلى ممارسة آليات الضبط التقليدية بوسائل حديثة والجمع بينهما، بالرغم من أنّ هذا غير كاف.

تنقسم اجتماعية المجتمعات إلى قسمين، اجتماعية أفقية واجتماعية عمودية. وتتمثّل الأفقية في الاحتكاك والتقارب الحميمي اليومي بين أفراد الشعب الواحد وهذا ما نجده لدى العربي مثلاً في أسواقه ومساجده وشوارعه وحتّى في منزله، وقد يكون ذلك سبباً لزيادة الوباء أكثر واستفحاله. أمّا الاجتماعية العمودية فهي الخضوعية الكلّية لأفراد المجتمع للسلطة التي تحكمهم والثقة شبه العمياء فيها طواعية والاستجابة لها دون تردّد والالتفاف بقوة حول قراراتها، وهذه هي السمة التي تميّز المجتمع الصيني والكثير من المجتمعات الآسيوية التي استطاعت تجاوز أزمة كورونا وهي السمة التي تميّز أيضاً المجتمعات المحليّة غالباً. فمرة أخرى نلاحظ أنّ خاصية الخضوع الكلّي للسلطة وفق التقسيمات الكلاسيكية تندرج في خانة "التقليدي" و"القبلي" وحتّى البدائي؛ لكنّها كانت الوسيلة الفعّالة لكثير من المجتمعات الحديثة لتقليص الأزمة بداية من الصين وحتّى بعض شعوب أوروبا، فحين بدأ المجتمع الألماني يستجيب لقرارات حكومته تناقصت الأعداد وكذا الحال مع الاستجابة الواعية والفورية للسويديين دون أدنى قهر للتباعد الاجتماعي أو بالأحرى تباعد المسافة والاحتياطات الأمنية في الموضوع. نتيجة أخرى تفاجئنا في التقاطعية بين العولمي والتقليدي وهي درجة استجابة المجتمع طواعية للسلطة المسيّرة، والتخلّي في حال الأزمات عن الحريات الخاصة قادةً وشعباً، رؤساء ومرؤوسين دون فارق.

وهنا نطرح تساؤلاً آخر، كيف تصبح حالة هذا الإنسان نفسه على مستوى التعامل المحليّ الجماعاتي مع الفيروس؟ ... من منطلق قول بيرناد لوبوتي بأنّ المعرفة الشاملة تتقدّم بتراكم المعارف المحليّة.



## تجارب محلية

أطلعنا عدّة جرائد ومواقع إخبارية إلكترونية على تجارب لمجتمعات محلية في مواجهتها لأزمة فيروس "كورونا - كوفيد 19"، وإن كان بعضها "مؤملاً" كما حدث في قرية مصرية رفضت دفن طبيبة بمقابرها مع أنّها كانت بجانب المرضى إلى آخر رمق من حياتها، أو طرد طبيبة وعائلتها من قبل جيرانها بدعوى احتكاكها بالمرضى في المستشفى<sup>6</sup>، وإن عدّلت السلطة المصرية من هذه المواقف باتخاذ بعض الإجراءات القمعية؛ لكنّ ما يهّمنا هنا هي المواقف "الإيجابية" في التعامل مع الكائن المستجد.

ففي إيطاليا وفي وسط الانتشار الواسع للمرض وتزايد وثيرة الإصابات تقع قرية بالشمال غير بعيدة عن إحدى أبرز بؤر المرض "تورين" (العاصمة الإقليمية) بحوالي 19 كلم، وهي قرية "مونتالدو" في منطقة "بيدمونت" التي لم يصب أيّ أحد من أفرادها بالفيروس، بعيداً عن التفاسير الأسطورية المتداولة والتي تدّعي أن "ماء المعجزة" في القرية كان السبب، أو التفاسير الأيكولوجية التي تعيده إلى صفاء الجوّ ونقاؤه الصحيّ، فما يهّمنا هو الجانب الاجتماعي للتفسير والمتمثّل في طبيعة الأهالي، فهم حرفيون كبار في السنّ يحترمون كثيراً عمدة بلدتهم ما ساعد على تلقّي أوامره بارتياح، وكان هذا الأخير سباقاً في توجيه أفراد جاليته إذ يقول: "منذ البداية، وضعت إشعارات في صناديق بريدية للأشخاص تسرد الأشياء التي يحتاجون إلى القيام بها للبقاء في أمان، مثل: غسل اليدين بانتظام وتجنّب الاتصال المباشر ونشرت إشعارات رسمية على موقعنا. لقد كنّا أوّل مدينة في المنطقة تقوم بتوزيع الأقنعة على جميع العائلات، وما زلنا نوزّع أقنعة بديلة" (صلاح، 2020). وما يلفت الانتباه في هذا التصريح هو الوعي الاجتماعي الجماعي للمجموعة والتساند القائم بينها وبين السلطة الرسمية فيما سمّيناه بظاهرة "الاجتماعية العمودية".

والوضع ذاته مع قرية "فيريرا إربونيون" التابعة لمحافظة "باثيا" بإيطاليا القرية بـ 50 كلم من "ميلانو" المدينة التي سجّلت أكثر من 7000 وفاة بسبب المرض، وبغض النظر عن التفسير الأسطوري مرّة أخرى، كون السكّان يملكون أجساماً مضادة للأمراض، فالجواب المُعقلن والتفسير المنطقي يكمن في جواب رئيس القرية والذي يعزو ذلك إلى "انضباط السكّان وطاعتهم في تلقّي تعليمات العزل والحجر من قبل السلطات

<sup>6</sup> www.bbc.com/arabic/52220193

منذ البداية، ولم يتواصلوا مع أشخاص من خارج القرية" وارتدائهم للأقنعة بشكل دائم<sup>7</sup>. وهو ما وقع أيضاً في جمهورية Montenegro الصغيرة والمطلّة على البحر الأدرياتيكي.

وفي الجزائر أيضاً، اتخذت بعض قرى مناطق القبائل إجراءاتها في مواجهة الأزمة بشكل استباقي تحت قيادة "تاجمعت" وأعيان البلدة وحتى بعض جمعيات أو لجان الحي، ففي قرية "آيت بودوا" مثلاً قامت لجنة القرية بإعلان حالة الطوارئ. ومنع السكان والأطفال خاصة من التنقل دون سبب، ونصبت صهاريج من المياه والجافيل في أغلب الأزقة لمساعدة المواطنين في تعقيم أيديهم، وأغلقت جلّ المحلات التجارية وقاعات الحفلات و الأسواق الأسبوعية والساحات العمومية وكذا المقاهي، وتطوّع عدد من الشباب في تعقيم الأماكن العمومية، كما نصّبت خلية يقظة لمتابعة المستجدات ومتابعة الحالات المشتبه فيها. وهو الواقع نفسه الذي انتهجته كلّ من قرية "أزقون" وقرية "معاتقة"<sup>8</sup>، وكلّها مجتمعات ميزتها تكمن في قوّة "اجتماعيتها الفوقية والعمودية".

والوضع شبيهه في منطقة مزاب بالجنوب؛ إذ سارع السكّان بشكل مسبق تحت سلطة الأعيان والهيئات الدينية إلى إقامة أغلب الإجراءات المذكورة في القرى القبائلية المشار إليها، بالإضافة إلى توقيف حركة استقبال السوّاح والزائرين من الخارج وتوزيع الكمّات على السكّان بيتا بيتا في فترة كان يندر فيها توقّفها بالسوق، كما تمّ إنشاء إذاعات محلّية تُبثّ على النت وأمواج ال FM تحمل برامج محلية ودينية بما في ذلك الدروس الرمضانية لضمان بقاء الأفراد في البيت. إلّا أنّ الأخذ والردّ استمرّ بين الاجتماعية الأفقية لهذا المجتمع واجتماعيته العمودية خاصة ما يمسّ فضاءات الأسواق التقليدية لما تمثّله من رمزية لدى الكثيرين.

## خاتمة

الحالة المعملية أو المخبرية التي يعيشها العالم اليوم مع أزمة كورونا، يضع في طاولة النقاش عديد القضايا السوسولوجية والأنثروبولوجية للحوار والمداولة، ويدعو إلى مراجعة عدد من الأطروحات والبراديجمات المحورية بما في ذلك ما كان يُعتقد أنّه كلاسيكيّ أو شبه بديهي. ولم نقف في هذه الورقة إلّا على إحداها، فالاعتقاد في تقدّم

<sup>7</sup> www.i24news.tv

<sup>8</sup> www.elhayatarabiya.net

البشرية من الجماعاتي إلى الفردي ومن التقليدي إلى العولمي قابلٌ في هذه الظروف لكثير من التفاوض، وبالرغم من أنّ هذه التفاوضية محكومة بظرفيتها وأنيتها؛ لكنها بيّنت كما رأينا إمكانية تجاوز الصورة الثنائية للطرفين وتناقضهما، ليتساند التقليدي مع العولمي ويوجد بداخله، ويسعى العولمي لممارسه التقليدي والحنين له وجعله قاعدة لتعاملاته وممارساته.

عودة الإنسان إلى محلّيته واجتماعيته أو استدعاؤه لها في زمن كورونا للخروج من الأزمة، لا ينفي أيضاً الاتجاه العكسي لبعض المظاهر التي كانت محلّية ليزداد بُعدها العولمي، فالذعر أصبح عالمياً موحّداً من الآخر، ومن الأيدي، ومن المسطّحات، ومن مقابض الأبواب... وغيرها من الأشياء (شول-هان، 2020)، كما أصبحت أيضاً إنسانية الإنسان عالميّة خارج ذاته الاقتصادية كما يعتقد عزمي بشارة (2020).

ومن ذلك الخطاب الديني الذي كان منحصراً في المنطلق على اتهام مجموعات محدّدة كما الحال مع الخطاب الإسلامي الذي انهال على السلطة الصينية معتقداً أنّ انتشار الوباء فيها كان انتقاماً ربّانياً لمواقفها من مسلمي الإيغور، ولأكلهم المحرّمات؛ لكنّ وصول الفيروس إلى كلّ بقاع العالم وحّد الخطاب أو كلّ الخطابات الدينية تقريباً من إسلامية ومسيحية وحتى اليهودية وغيرها في أنّ الوباء نذير إلهي لأفعال الإنسان وإفساده في الأرض بيئياً وأخلاقياً وإثبات لضعفه ووهنه، ولعلّه إعلان عن بدايات نهاية العالم بأكمله...

ما على العلوم الاجتماعية اليوم إلّا أن تراقب وتسجّل ملاحظاتها في أدقّ دقائقها، فهي فرصة قلّما تتكرّر عبر تاريخ العلوم لمعرفة الإنسان أكثر في عمقه وأغواره بعيداً عن التكلّف والتصنّع قصد مراجعة التراكم المعرفي السابق.

## بيبليوغرافيا

أعمال ديديه راوول Didier Raoult في الموضوع:

فيروس كورونا-من-هو-البروفسور-الفرنسي-ديدييه-راوول-مكتشف-الدواء-المثير-للجدل.  
-<https://www.france24.com/ar/20200325>

بلدية ايت بوادوا وقرى تيزي وزو تتجند لمواجهة كورونا فيروس، 17 مارس، 2020، أنظر:  
<https://www.elhayatarabiya.net/ar/>

شول-هان، بيونغ (2020). الهلع الفيروسي وعالم الغد. (بدر الدين مصطفى، تر.). الرباط-  
المغرب : مؤمنون بلا حدود الدراسات والبحوث.

صلاح، خالد (2020). "ماء معجزة!.." ما سر عدم وجود إصابات في قرية مانتالدو  
الإيطالية؟، 30 مارس 2020 11:33 م، في: <https://www.youm7.com/story/2020/3/30>

خواجه، عبد العزيز (2018). سوسيولوجية الرابط الاجتماعي. ألمانيا : نور للنشر ؛  
الجزائر : داية للنشر .

إبراهيم العزبي، زينب (2019). علم الاجتماع العائلي، جامعة بنها، أنظر  
<http://olc.bu.edu.eg/olc/images/fedu513.pdf>.

الهاشبي، عبد القدوس (2020، 31 مارس). الطواعين والأوبئة في التاريخ الإسلامي. مركز  
الجزيرة.

ماذا-تعرف-عن-أبرز-2020/3/31-<https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2020/3/31>  
الطواعين-والأوبئة-في-التاريخ-الإسلامي..

بشارة، عزمي (2020، 20 أبريل). جبر الخواطر في زمن المخاطر: الناس والوباء. قطر: المركز  
العربي للأبحاث ودراسة السياسات. [www.dohainstitute.org](http://www.dohainstitute.org).

غموض كورونا : فيريرا اربونيون قرية إيطالية التي لم تشخص بها أي إصابة بالفيروس،  
03 أبريل 2020 10:06 ص، في: <https://www.i24news.tv/ar/>

نوري ديمنافي، فاطمة (2020). ملاحظات مختصرة حول تصوّر «جيجك» من فيروس  
كورونا، (حنان برفرق، ت.). مؤمنون بلا حدود. الرباط - المغرب : الدراسات والبحوث.

فانيورون، فريدريك (2020). الإنفلونزا الإسبانية، عودة إلى وباء 1918-1919. (محمد  
حبيدة، ت.). مؤمنون بلا حدود، الرباط - المغرب : الدراسات والبحوث، ص. 06.

فعالية دواء "ريمديسفير" في أمريكا:

<https://www.scientificamerican.com/arabic/articles/news/experimental-drug-grabs-attention-during-searching-for-cure-for-coronavirus/>

قناة الحرة، (2020)، يوم: 18 أبريل 2020، أنظر:

<https://www.alhurra.com/coronavirus/2020/04/18/خطأ-مخبري-مكتشف-فيروس-الإيدز-2020/04/18/>  
يشعل-نظرية-المؤامرة-كورونا.

نووه هراري، يوفال (2020). العالم ما بعد فيروس كورونا، (حافظ إسماعيلي علوي، ت.)،

مؤمنون بلا حدود. الرباط-المغرب : الدراسات والبحوث.

[http://classiques.uqac.ca/classiques/Engelsfriedrich/Origine\\_famille/Origine\\_famille.html](http://classiques.uqac.ca/classiques/Engelsfriedrich/Origine_famille/Origine_famille.html)

<https://matricien.wordpress.com/essais/engels>

<https://www.bbc.com/arabic/52220193>

<https://www.dw.com/ar/غضب-في-مصر-بعد-رفض-أهالي-قرية-دفن-طبيبة-خوف-من-فيروس-كورونا/a-53097269>.